الفصل الرابع

المصادر الفكرية للعنف

المصادر المغذية للعنف فى الجماعات التى نتحدث عنها مرتبطة ـ كما سبق ذكره ـ بفهم مغلوط للإسلام، ويعتمد على مصادر إسلامية صحيحة فسروها خطأ، أو مصادر أسموها هم إسلامية، وهى من صياغة رموزهم. ومن أهم هذه المصادر ما يلى:

١ - فتاوى الإمام ابن تيمية

فيما يتعلق بالتتار والشريعة التى كانوا يحكمون بها (الياسق) اعتمدت معظم جماعات الجهاد ومشتقاتها المنتهجة العنف على فتاوى الشيخ ابن تيمية (٦٦١ ـ ٧٢٨هـ)، خاصة بما يتصل بالموقف من التتار والشريعة التى يحكمون بها، التى كانت تسمى (الياسق) أو (الياسة) وهى مجموعة قوانين وضعها ملكهم (چنكيز خان)[١٧]. واعتبروا أن حكام اليوم مثل التتار بل أشد، وأن القوانين المطبقة مثل (الياسق) بل أدهى وأمر، كما ذكر محمد عبد السلام فرج فى كتابه «الفريضة الغائبة».

والحقيقة أن الفتوى ـ كما أجمع العلماء ـ غير الحكم، فالحكم ثابت، أما الفتوى فتتغير، وهى مرتبطة بالظروف والزمان، بل وبالشخص، كما قال أصحاب علم الأصول: «الفتوى تقدر زمانًا ومكانًا وشخصًا»، وعليه مجرد الاستعانة بفتاوى الشيخ ابن تيمية التى صدرت منذ ما يزيد على سبعة قرون فهو أمر مخالف لقواعد الشريعة الإسلامية.

والأمر الثانى: أن ما ورد بشأن فتاوى ابن تيمية التى كفّر بها التتار وأوجب قتالهم ارتبط كما شرح د. محمد عمارة «أن هذه الأسباب التى دعته (أى ابن تيمية) إلى تكفير التتار فقط دون المماليك على الرغم من أن الاثنين يحكمان بعقيدة واحدة اسمها «الياسق» . . ولكن السبب كان أن التتار اعتدوا على الأعراض والأنفس وأغاروا على المقدسات ـ ومنها المساجد ـ واغتصبوا أشرف نساء المسلمين داخل المسجد الأقصى

والمسجد الأموى، وجعلوا الجامع الذى بالعقبية دكّا، وغزواتهم التى أهلكوا فيها الحرث والنسل، وهددوا الحضارة الإسلامية بالدمار».

٢ - بعض كتابات الأستاذين أبو الأعلى المودودى وسيد قطب

كان لبعض كتابات المفكر الإسلامى الأستاذ أبو الأعلى المودودى مؤسس «الجماعة الإسلامية» بباكستان (عام ١٩٤٩م) تأثير كبير على كثير من الجماعات التى انتهجت العنف، وخاصة كتابه «المصطلحات الأربعة» و «الانقلاب الإسلامى» وكذلك بعض كتابات الأستاذ سيد قطب، وخاصة كتابه «معالم فى الطريق» فقد استندت هذه الكتابات جميعًا إلى فكرة «الجاهلية» و«الحاكمية».

فالجاهلية صفة تطلق على أشياء كثيرة ومستنبطة من آيات قرآنية مثل: ﴿**أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ**﴾ [المائدة: ٥٠]، ﴿**ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ**﴾ [آل عمران: ١٥٤]، ونصوص نبوية مثل «**إنك امرؤ فيك جاهلية**» ... «**كل أمر من أمور الجاهلية تحت قدمىَّ موضوع**» ... إلخ.

فالجاهلية فترة زمنية سبقت الإسلام، وعمّ فيها الظلم والجور والشرك والرق والفجور ... إلخ، وقياس المجتمعات الإسلامية الحديثة عليها بهذه الصفات أصابها الكثير من الخلل، وهذا ما كان فى الكتابات التى أشرنا إليها التى تحكم على المجتمع بالذات بأنه جاهلى، وبالتالى يجب اعتزاله والانفصال عنه والسعى لتغييره بالقوة. كما أن التوسع فى فكرة الحاكمية لله واعتبار أى نص ليس عليه دليل من الشريعة تحاكمًا لغير الله وكفرًا به، وبالتالى يوصم صاحبه بالكفر نظامه والمجتمع كله، مما يستتبع أيضًا النفرة لنصرة الحاكمية لله وقتال من انتقصوا من حاكمية الله فى مفهومهم.

٣ - رسائل شكرى أحمد مصطفى وكتاباته

لقد كانت كتابات شكرى أحمد مصطفى قائد «جماعة المسلمين» المعروفة باسم «التكفير والهجرة» سواء كراساته أو كتاب «الخلافة» أو «التوسمات» ـ هى المغذية لكل جماعات التكفير ومشتقاتها، والحقيقة أن «شكرى» استحدث أفهامًا خاطئة عن الإسلام، وهو الذى فسّر النصوص وأسقطها على الواقع. وأصَّل بنفسه لفكرة تكفير المجتمع واعتزاله وهجرته تمهيدًا لحدوث علامات الساعة وتدخل السماء لخسف الكفار والمشركين، وعودة الوسائل البدائية من جديد، وهذا يفسر استعمالهم ـ حتى فى

العنف ـ لأدوات بدائية مثل السكين والسيف وغيرهما، وهذا الفهم الأخير شرحه فى كتابه «التوسمات»، ولم يعرف التاريخ الإسلامى شططًا فكريًا مثل جماعة التكفير إلا مجموعة الخوارج التى خرجت عن فكر الأمة وعن أصولها الصحيحة وقتلت الإمام علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه.

٤ - كتابات مجموعات الجهاد ورسائلها

كل مجموعات الجهاد التى تشكلت كتبت رسائل تبرر العنف (أو استخدام القوة فى التغيير) وتؤصله وتحض عليه، وتهدم الأساس الفكرى للأنظمة الحاكمة، ويتجلى ذلك فى:

(أ) رسالة «الإيمان»[١٨] لصالح سرية سنة ١٩٧٣م

والتى يقسِّم فيها الناس إلى ثلاثة أقسام: مسلمون، وكافرون، ومنافقون (يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر) وكفَّر القوانين المخالفة للإسلام ومن يعملون بها ويضعونها ... إلخ، وجميع مصادره فيها آيات من القرآن الكريم فسّرها هو بنفسه واستخرج منها أحكامه.

(ب) كتيب «الفريضة الغائبة» لمحمد عبد السلام فرج[١٩] (١٩٧٩ ـ ١٩٨١م)

والتى قارن فيها بين التتار وحكام اليوم وأسقط عليهم فيها أحكام التتار، وأصّل فيها لقتالهم والخروج عليهم، وتراوحت مصادره بين القرآن الكريم وفتاوى ابن تيمية وأحاديث نبوية من صحيح مسلم شرح النووى، وتفسير السيوطى، وبعض كتابات الأستاذ قطب.

٥ - كتابات «الجماعة الإسلامية» التى تنتهج العنف، ورسائلها

كما أسلفنا أن لكل مجموعة من مجموعات العنف رغبة فى تأصيل أفعالهم فى رسائل وكتيبات، فإن «الجماعة الإسلامية» التى تشكلت ـ كما أسلفنا منذ عام ١٩٨٠م فى الصعيد أساسًا وتنتهج العنف ـ أصدرت عدة رسائل لهذا المعنى أهمها من الناحية الفكرية ما يأتى:

(أ) «ميثاق العمل الإسلامى»[٢٠] سنة الإصدار ١٩٨٤م: والذى كتبه ثلاثة من قادتهم وهم ناجح إبراهيم (طبيب)، وعصام دربالة (مهندس)، وعاصم عبد الماجد (مهندس). والتى تحاول تأصيل شعارات مميزة لجماعتهم فى غايتها وعقيدتها وهدفها وطريقتها، وقضية الخلافة التى تسعى الجماعة لعودتها، وكيف السبيل إلى هذا؟.

(ب) رسالة «حتمية المواجهة»[٢١] سنة الإصدار ١٩٨٧م: وهى رسالة تشرح أن طريق التغيير قد بدأ منذ حادث المنصة (أى اغتيال الرئيس السادات) عام ١٩٨١م، وتشرح كذلك كيف أن قوانين الشريعة تبدلت، وتكفّر الحاكم الذى لا يحكم بالشريعة ويستبدل بها القوانين الوضعية، ووجوب قتاله وحتمية المواجهة معه.

(جـ) بحث «وجوب قتال الطائفة الممتنعة عن شريعة من شرائع الإسلام»: وهو بحث يعتمد أيضًا على فتوى «ابن تيمية» المتعلقة بالتتار، والذى اعتبر فيه «التتار طائفة ممتنعة عن شرائع الإسلام، مثل مانعى الزكاة على عهد أبى بكر الصديق، وأن ذلك يستوجب قتالهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله»[٢٢]. فمتى كان الدين بعضه لله وبعضه لغير الله وجب القتال حتى يكون كله لله. واعتبرت «الجماعة الإسلامية» أن الفئة الحاكمة اليوم ـ كما أسلفنا ـ هى مثل التتار، وبالتالى قتالهم هو قتال طائفة ممتنعة عن تطبيق شريعة من شرائع الإسلام.

***